صورة الآخر الفرنسي في الرواية الجزائرية
" ما لا تذروه الرياح " أنموذجا

الدكتور: عبد القادر شريف بموسى
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان

الملخـــص

تتناول هذه الدّراسة الجانب النّفسي من الصّراع الحضاري بين الشرق والغرب في الرّواية العربية الجزائرية ممثّلة في رواية " مالا تذروه الرّياح " لعرعار محمّد العالي. فهي تركّز على العلاقة النّفسية القائمة بين الغرب المستعمِر (فرنسا) و الشّرق المستعمَر (الجزائر) من خلال تحليل علاقة البطل " البشيـــر" بالفرنسية " فرانسوار". و هـــي علاقة نفسية مريضة قائمة على نوع من السادية أو التّلذّذ بتعذيب الآخر سواء كان هذا التّعذيب جسديّا أم نفسيّا و هو الأخطر. فعلاقـــة " فرانسواز" السادية تجاه البشير ترمز بذكاء إلى العلاقة السّادية التي تربط المستعمِر (فرنسا) بالمستعمَر (الجزائر)؛ حيث يتلذذ الأول بتعذيب الآخر حتى بعد الاستقلال. فغالبا ما تبقى علاقة المستعمِر بالمستعمَر – حتى بعد حصول هذا الأخير على استقلاله – علاقة مريضة تقوم على الخضوع و التّبعيّة بكلّ ما تحمله من معاني الاحتقار و الازدراء، بدلا من أن تكون علاقة تساوٍ و تكامل، لا مكان فيها لفوق و تحت أو قويّ وضعيف أو غالب و مغلوب.

مقدمة في الرواية العربية الحضارية

لقد تميّزت العلاقة بين الشرق والغرب – على امتداد التاريخ – بالتراجيدية حيث غالبا ما كان يتمّ هذا اللّقاء بينهما بشكل مأساوي. فالتعصّب الأعمى لدى أوروبا في القرون الوسطى لكلّ ما هو غربي ومسيحي، دفع بها دفعـــا – حينمـــا رأت نفوذ الإسلام يزداد وحضارته تنتشر في ربوعها بالرّغم منها – إلى أن تجهر بالعداوة والبغضاء للحضارة الإسلامية للحدّ من انتشارها؛ بل وأصبحت ترى في الدولة الإسلامية خصمها اللّدود. « ومن هنا أصبح يُنظر للإسلام على أنّه إلغاءٌ للمسيحية وأنّ رسوله محمّدا هو عدوّ للمسيح، وكان الغرب يرى في العالم الإسلامي عالما مضادا لأوروبا وبذلك أصبح موضع الشّكّ والرّيبـــة »[1].

ولعلّ من أهمّ مظاهر هذا العداء والتعصّب، الحروب الصّليبية على العالم الإسلامي والّتي دامت أكثر من قرنين حيث تجلّت فيها روح الحقد والكره للمسلمين وللإسلام بشكل ســـافر. وحتّى بعد ذلك بقرون عديدة، لم تستطع أوروبا التّخلّص من هذا العداء والحقد الدفين اللّذين تكنّهما للشرق والعالم الإسلامي على الخصوص؛ « ولهذا كان من السّهولة بمكان أن تتحوّل رغبتها القديمة في الوقوف في وجه خصمها الإسلامي إلى تصميمٍ على السيطرة، هذا التّصميم الّذي كان الأساس النفسي للإمبرياليين منذ نابليون »[2] أثناء حملته المشهورة على مصر سنة **1798**م.

ولنا في التاريخ خير دليل على وجود تلك العلاقة التراجيدية وذلك اللقاء الشائك والمأساوي بين العالمين: الشرق والغرب/ الإسلام والمسيحية؛ فلا يمكن لأحد أن يُنكر الفتح الإسلامي للغرب كفتوحات العرب لإسبانيا وجنوبي فرنسا وإيطاليا، كما لا ننسى الحروب الصليبية الّتي امتدّت قرابة القرنين ثمّ الفتوحات العثمانية لأوروبا وحصارها لفيينا عاصمة النمسا وقلب أوروبا

مرّتين متتاليتين (عام **1529** و**1683**). ثمّ جاء بعد ذلك الاستعمار الأوروبي لبلدان الشرق الإسلامية، وما صاحب هذا الاستعمار من قهر وعنف واستغلال لشعوبه المستعمرة ومحاولة إبادتها. ولّدت هذه اللقاءات كلّها بين الشرق والغرب والإسلام والمسيحية، عنفا وعدوانية متأصّلتين على مرّ التاريخ. ومن هنا جاء اللاشعور الجمعي(**Inconscient Collectif**)[3] للشعوب المسلمة والمسيحية على السواء، محمّلا بصور العنف والعدوان والغزو والفتح.

من هذا المنطلق جاءت الروايات العربية الحضارية لتصوّر أزمة هذا الصّدام الحضاري ووقعه على المثقف العربي بكلّ ما يحمله من صور لاشعورية، فردية كانت أم جمعية عن هذا الغرب الاستعماري الّذي احتلّ بلده ونهب خيراته وكان سببا في تخلّف حضارته وبقائها في مؤخّرة الرّكب الحضاري. فحاول المثقف العربي أن يُثبت ذاته ويردّ على هذه الحضارة الغربية وينتقم منها في عقر دارها من خلال نقل هذا الصّراع إلى الغرب مُستغلاّ أيّة وسيلة ممكنة ينتقم بها. فنراه تارة ينتقد مادية الغرب وتكنولوجيته وتعاليه كما حدث في رواية توفيق الحكيم " عصفور من الشرق"، وتارة ينتقم من نسائه انتقاما فرديا عن طريق وسم فتياته بالعُهر والرّذيلة وهذا ما كان في رواية سهيل إدريس " الحي اللاتيني"، وقد وصل هذا الانتقام في بعض الأحيان إلى درجة القتل والانتحار كما في رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " للروائي الطيّب صالح.

ونقصد هنا بالروايات الحضارية هي تلك الروايات العربية التي تناولت الصراع الحضاري بين البيئة العربية المسلمة (بما فيها بلدان المغرب العربي) والغرب المسيحي من خلال تنقّــل أبطالها إلى البيئة الغربية حيث ذهبوا يطلبون العلم في أوروبا، فوجدوا أنفسهم فجأة في بيئات تختلف عن

بيئتهم، وحضارة غير حضارتهم، وجابهتهم ثقافات مختلفة ومفاهيم فكرية وعادات اجتماعية وقيم لا عهد لهم بها.

فهذا الاتّصال الّذي تمّ بين العرب والغرب انعكس في آثار روائية كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: " قدر يلهو " لشكيب الجابري و" عصفور من الشرق " لتوفيق الحكيم، و" قنديـــل أم هاشم " ليحي حقـــي، و" الحـــي اللاتيني" لسهيل إدريس وقلعة الرموز " موسم الهجرة إلى الشمال " للطيب صالح و" الساخن والبارد" لفتحي غانم و " الظمأ والينبوع " لفاضل السباعي وآخرون قبلهم وبعدهم.

ولم تتخلّف الرواية المغاربية عامة والجزائرية على وجه الخصوص عن مواكبة الرواية العربية في تناولها لموضوع الصراع الحضاري بين الشرق والغرب وبين الشمال المسيحي والجنوب المسلم. ولعلّ أوّل روائي مغاربي تناول هذا الموضوع هو عبد المجيد بن جلون في روايته " في الطفولة " الصادرة سنة 1957 ثم الروائي والمفكر المغربي عبد الله العُروي في روايتيه " الغـــربة " و" اليتيـــم " و" محمد زفزاف " في رواية "المرأة والوردة ". أما الروايات الجزائرية الحضارية فنجد " ما لا تذروه الرياح " لعرعار محمد العالي ورواية "المرفوضون " لسعدي إبراهيم و" مأوى جان دولان " لعمر بن قينة و" ذاكرة الجسد " لأحلام مستغانمي وغيرها.

هؤلاء الروائيون حاولوا أنّ يعكسوا ما يعانيه الطالب (العربي) في الغرب من صراعات وتحديات داخل ذاته، قد تؤدّي به إلى أن يُقتلع من جذوره تحت هول الحضارة الغربية المادية ويفقد شخصيته الأصلية؛ أو أن يصبح يعاني من انفصامٍ في الشخصية وتمزّقٍ بين الانتماء إلى الأصل أو إلى الغرب. فيحسّ بالغربة والاغتراب داخل بلد ليس ببلده، ومجتمع غريب عن مجتمعه، وعادات مختلفة عن عادات وطنه وبيئته.

فالتساؤل عن علاقات [الأنا] العربي بالآخر الغربي، هو محور روايات هؤلاء الكتاب، ولهذا جاء أبطال رواياتهم انعكاسا لما يعانيه شبابنا العربي في الخارج من تحديات وصراعات رهيبة قد تفقدهم انتماءهم وأصالتهم وعقيدتهم كذلك.

كما تزخر غالبية هذا النوع من الروايات الحضارية بأشكال من العنف، سواء اللفظي أو الجسدي أو النفسي. فهذا الأخير ما هو إلاّ «نتاج مأزق علائقي بين الأنا والآخر ويتمظهر على الصعيد النفسي، بشكل خفيّ، حينا، مُقنّعا بلباس السكون والاستكانة الخادعة، وحينا آخر بشكل صريح ومذهل في شدّته واجتياحه لكلّ القيود والحدود. إلاّ أنّ بين حينين هناك العديد من الاحتمالات الّتي تتفاوت شدّة ووضوحا، فهي قد تأخذ طابعا رمزيا على شكل سلوك مرفوض، أو قد تتخذ طابع التوتّر الوجودي »[4].

و بالتّالي، تقدّم هذه الروايات الحضارية علاقات عنيفة بين شخصياتها إلى درجة العدوان والتعدّي. ومن منطلق المماهاة الّتي يقيمها البطل الشرقي بين علاقة الشرق بالغرب وعلاقة الرجولة بالأنوثة (أي يجعل الغرب محصورا في المرأة) فإنّ الصّراع الحضاري الّذي تقدّمه هذه الروايات يصبح عبارة عن صراع البطل الشرقي مع المرأة الغربية، وما يميّز هذه العلاقة هو ذلك العنف وتلك العدوانية اللّذان قد تصلان إلى القتل والانتحار. كما أنّ هذه العلاقة العنيفة بين شخصيات الروايات الحضارية، ليست فقط علاقة قائمة على القوّة والضعف والفوقية والدونية، ولكن علاقة قائمة على السادية والمازوشية من منطلق إيديولوجي شرقي يرى أنّ الرجل سادي والمرأة مازوشية، الرجل هو الّذي يؤلم ويتلذذ بفعل الإيلام والمرأة هي الّتي تتألم وتتلذذ بوقوع الألم عليها.

إضـــاءة لمفهومي الساديـــة و المازوشية

وقبل بداية تحليل رواية " ما لا تذروه الرياح " لا بدّ لنا من إعطاء إضاءة خاطفة عن ماهية مصطلح السادية والمازوشية في التحليل النفسي قبل محاولة استجلائه داخل نصّ الرواية من خلال علاقة الأنا العربي بالآخر الفرنسي.

« فالسادية **Sadism** نسبة إلى الكونت دوساد **(1740-1814)** الّـذي قام بوصفها وتبيان خصائصها. وتتلخّص في أنّ المرء يشعر بالتلذّذ لدى إنزال العذاب بأشخاص من نفس الجنس أو من الجنس الآخر. غير أنّ المعنى النفسي التحليلي يتضمّن دائما الشعور باللذّة لدى تعذيب من نعشقهم. لهذا تُعتبر السادية في جوهرها انحرافا جنسيا، على الرغم من أنّ عنصر الجنس قد لا يتبدّى بوضوح في كلّ [العلاقات] السادية »[5].

بينمـــا المازوشيـــة أو الماخويـــة فقد سمّيت بهـــذا الاسم نسبـــة إلـــى الـــروائي النمســـاوي د. فون ماسوخ **L.Von Sacher Masoch (1835-1895)** الّذي قام بوصفها في كتاباته. وهي عبارة عن الشعور باللذّة من طرف المرء عندما يُمارَس عليه العذاب من الآخر[6].

وبمعنى آخر، المازوشية **Masochisme** هي «شذوذ جنسي يرتبط فيه الإشباع بالعذاب والألم أو بالإذلال الّذي يلحق بالشخص. ويُوسّع فرويد فكرة المازوشية إلـــى ما يتجاوز الشذوذ الّذي وصفه علمـــاء الجنس... فهو يعرض أشكالا مشتقّة منها وخصوصا المازوشية " الخُلقية " الّتي يبحث فيها الشخص، بدافع من شعور لا واع بالذنب، عن وضعية الضحية بدون أن يتضمّن ذلك مباشرة أيّ لذّة جنسية »[7]. وبعبارة أخرى نقول بأنّ السادية هي عدوانية الفرد متّجهة إلى الآخر بنوع من التلذّذ. بينما المازوشية فهي تلذّذ الفرد بآلامه وعذابه أو بما يقع عليه من عذاب أو آلام. وقد تتجلّى هذه

السادية في معظم أشكال التعبير الإنساني واتّصاله بالآخر بما تحمله من عدوان وعنف وتهديد له. وقد يكون هذا العدوان جسديا أو لفظيا أو أيّ سلوك من شأنه أن يهدّد بقاء الآخر أو يحطّ من قيمته الاجتماعية.

رواية ما لا تذروه الرياح و الصراع الحضاري

وتعتبر الرواية الجزائرية " ما لا تذروه الرياح " لعرعار محمد العالي الصادرة سنة 1972 من أوائل الروايات الحضارية الّتي تناولت تصوير طبقة من الجزائريين خونة وعملاء للاستعمار أُطلق عليها لفظ "**الحَــرْكَــى** ". هؤلاء العملاء خانوا أهلهم ووطنهم وشعبهم وتنكّروا لقيمهم وعاداتهم ولغتهم محاولين أن يكونوا فرنسيين أكثر من الفرنسيين أنفسهم. لقد كان وقع الحضارة الغربية على ذواتهم الضعيفة وغير الواعية مهولا، إلى درجة جعلهم يميلون إليها دون أدنى صراع مع قيمها المادية الجشعة واللاّأخلاقية، لأنّهم أحبّوا فيها منذ البداية سلطة القوة العسكرية والعظمة الحضارية والغلبة الاستعمارية فيها، وكرهوا ضعف بلدهم وتخلفه الحضاري ووقوعه في يد الاستعمار، فمالوا إلى الطرف الأقوى والمتفوّق من المعادلة وهو الغرب الاستعماري (فرنسا)، وأصبحوا أتباعا له عن طواعية وأداته التعذيبية المريعة يمارسها على الجزائريين بنوع من السادية دون رحمة أو شفقة. ومن هنا نرى أهمية هذه الرواية الجزائرية في رصد الجوانب النفسية والاجتماعية لهذه الطبقة العميلة للاستعمار وتتبّع تحوّلاتها الفكرية والنفسية محاولة تقديم جانبا آخر فظيع من أساليب الغرب الاستعماري وفضح ألاعيبه الدنيئة في استمالة عملاء جدد واستنهاضهم ضد إخوانهم ووطنهم.

وقبل أن نبدأ بتحليل الرواية لا بدّ لنا من أن نطرح أهمّ ملاحظة يمكن للمطّلع على تاريخ الاستعمار في المغرب العربي أن يصل إليها دون عناء أو مشقّة، وهي قيام الاستعمار الفرنسي بحرب نفسية فظيعة على

الشعوب المغاربية المستعمَرة (تونس- الجزائر- المغرب)، حيث اعتمد فيها السّخرية والحطّ من القيم العربية والإسلامية، ومن نمط الحياة الّتي تعيشها هذه الشعوب. وقد أحدثت هذه الحرب آثارا نفسية عميقة، وخلقت لدى هذه الشعوب شعورا بالاستلاب (الاغتراب) والدونية. وكان الهدف من ذلك نفسيا أوّلا، بتجريدها من كيانها الحضاري، وفي المعاش ثانيا، لتسهيل السيطرة عليها اقتصاديا واجتماعيا وفكريا[8].

وسنحاول في تحليلنا للرواية، استجلاء الجانب السادي في العلاقات الموجودة بين الأنا العربي الممثَّل في شخصية البشير والآخر الفرنسي ممثلا في شخصية المعلم الفرنسي الذي درّس البطل في الطفولة وشخصية فرانسواز الفرنسية الّتي ارتبط بها البطل أثناء تواجده بباريس.

ولا بأس هنا من تقديم تلخيص مقتضب للرواية. فهي تقدّم لنا شخصية البشير كنموذج لطبقة من الجزائريين الخونة " الحَرْكَى " إبّان الثورة الجزائرية التحريرية والّذين باعوا وطنهم الجزائر وانضمّوا إلى المستعمر الفرنسي ضدّ بني جلدتهم. فبعد فترة وجيزة من زواجه في قريته وقبيل انضمامه إلى صفوف الثوار الجزائريين، يؤخذ البشير عنوة من طرف الجنود الفرنسيين إلى ثكنتهم ومن هناك يُرحّل إلى الجزائر العاصمة حيث يتلقّى تدريبا عسكريا. فيصبح البطل، بعد ذلك، أحد أعوان الجنود الفرنسيين المهمّين بفضل طاعته العمياء لهم وتنفيذه لأوامرهم مهما كانت خطورتها وفظاعتها على الشعب الجزائري. ويصل تنكّره لبني جلدته وتقليده للفرنسيين المبهور بهم حَدّاً يجعله يغيّـر اسمه العربي " البشير" باسم فرنسي" جاك ". ثمّ يسافر بعد ذلك إلى باريس ليبقى مع الفرنسيين كهمزة وصل بينهم وبين الجنود الجزائريين الجدد الّذين يتمّ جلبهم إلى معسكرات التدريب كي يتلقّون تكوينا عسكريا يصبحون بعده عملاء لفرنسا يحاربون إخوانهم الثوار

الجزائريين.وأثناء تواجده بباريس يقوم بتقليد الفرنسيين في أفعالهم وسلوكاتهم فيسكر ويعاشر النساء.

وفي هذه الفترة يتعرّف على "فرانسواز" أرملة فرنسية جميلة لها ابن اسمه " برنار" فيحبّها ويعيش معها في منزلها. كما أنّه يُخفي أصله الجزائري عنها ويتنكّر لكلّ من يذكّره بأهله وزوجته " ربيعة " وابنه " باديس". لكنّه في النهاية يكتشف زيف حبّ فرانسواز له، كما تصله أنباء انتصار الثورة الجزائرية واستقلال وطنه، فيحنّ لبلدته ولأخيه "العباسي". يقطع علاقته بفرانسواز ويعود إلى قريته ويطلب العفو من أخيه العباسي فيصفح عنه بعد أحداث كثيرة؛ وتنتهي الرواية برجوع البشير إلى قريته يعيش فيها بين أهله وزوجته وولده، ويعمل في أرضه.

لعلّ أوّل شيء يستقطب انتباهنا في هذه الرّواية، أنّها – وبخلاف الروايات الحضارية الأخرى– لا تطرح إشكالية الصّراع الحضاري من خلال سفر بطلها العربي إلى الغرب (أوروبا)، وإنّما تنقل هذا الصّراع إلى قلب البلد العربي من خلال استعمار هذا البلد ومحاولة تهديم الشخصية العربية الإسلامية وطمسها، وهذا كان دور المدارس الاستعمارية. فبطل هذه الرّواية – على خلاف الروايات السابقة – يعاني من هذا الصّراع الحضاري منذ طفولته وفي قلب بلدته قبل أن ينتقل إلى باريس بسنوات.

تقدّم الرّواية البطل " البشير" على أنّه شخصية ضعيفة، فهو« شاب قصير القامة، شاحب الوجه، منقبض الأسارير، يتراءى للنّاظر كأنّه لن يبتسم أبدا »[9]، بل إنّنا نلمس ضعفه واستهانته منذ بداية الرّواية من خلال حديثه مع زوجته عن المجاهدين ورأيه في كفاحهم، حيث يعلن لها بكلّ يقين: «... لو كنت مكانهم، لرجعت إلى بيتي وإلى أهلي وتركت الّذي لا أستطيع عليه »[10]. فمنذ البداية يعلن استسلامه ورضوخه لمن يعتقد أنّه أقوى منه.

وحينما جاء الجنود الفرنسيون إلى قريته يبحثون عنه، فكان الشيء الوحيد الّذي يجول بخاطره في تلك اللحظة، هو أن يحطّم فكّ أيّ واحد من جنود الاستعمار تسوّل له نفسه أن يمسكه أو يقترب منه. ولكن ما إن أمسكوا به ووضعوا فوهات بنادقهم على ظهره حتّى تجمّد في مكانه ولم يحرّك ساكنا، بل إنّه أحسّ بالضّياع والتّلاشي.

بيد أنّ هذا الشعور يتغيّر إلى شيء لا يصدّق، فما إن أخذه الجنود الفرنسيون في الشاحنة متّجهين به إلى الثّكنة العسكرية حتّى أحسّ « بمتعة في الرّضوخ والاستسلام... رأى أنّ في قوّة الجنود الأجانب، مقدرة خارقة، شيء جميل، باهر، يدعوإلى الإعجاب والتّعلّم والاقتداء... أخذ ينظر إلى الجنود... بشغف كبير، وكأنّه يودّ الذوبان فيهم، وإحلال نفسه محلّ أنفسه[11].

إنّ إحساسه بالضّعف والضّياع، ولّد في نفسه حزنا وبؤسا، دفعا به إلى أن يبحث عن السّعادة، وهذه السعادة لا تكون إلاّ مع القوّة، وهذا ما جعلهُ يودّ أن يكون في جانب الجنود الفرنسيين قويا مثلهم.

وهنا يحقّ لنا أن نتســاءل – بعد هذه القراءة البسيطة لشخصية البطل – عن السّبب الّذي دفع بالبشير إلى هذا السلوك المغاير تجاه الغرب (الجنود).

ما هوالسّبب الحقيقي الّذي دفعه إلى الرضوخ والاستسلام بهذه السرعة والبساطة ؟. بل وإلى الإحساس بمُتعة هذا الرضوخ ؟.

ولعلّ الإجابة تأتينا من الرّواية ذاتها، فقــد كانت هذه التأثيرات تعتمل في شعوره ولا شعوره منذ الطفولة، تنتظر الفرصة لتظهر من خلال سلوكه فيما بعد : لقد كان منذ طفولته – حينما دفعه أبوه إلى المدرسة الابتدائية – جدّ متأثّر بمعلّمه الفرنسي بل مبهورا به «... يتفرّس في وجهه، وفي ثيابه وفي كلّ ما يحيط به.. فيجده ساحرا محبّبا إلى نفسه، يــودّ أن

يقلّده فلا يستطيع... يذهب إلى بيته، فلا يجد مشابها لما يجده في المدرسة... »[12].

فالبشير كان يتمنّى أن يقلّد معلّمه وأن يفعل أيّ شيء حتّى يبيّن له مدى إعجابه به. وسنتعرّف على هذا التأثير الخطير لمعلّمه على شخصيته فيما بعد.

إنّ طاعة البشير لأمر الجندي حينما أمره بالوقوف، إنّما هي طاعة لا شعورية للمعلّم الفرنسي الّذي درّسه في الابتدائية والّذي أثّر فيه تأثيرا بالغا. فحينما سمعَ البشير عبارة الجندي تقول له " قف هنا " « رأى كأنّ معلّمه هو الّذي يوجّه له هذا الأمر، أراد أن يطيعه.. فتوقّف حالا، حتّى يكون عند حسن ظنّ معلّمه... »[13].

فهذا المقطع من الرّواية خطير الدلالة إذ إنّه يعرّفنا ويوضّح لنا جوانب أخرى من شخصية البطل الّتي لا نفهم سلبيتها تلك. ولعلّ هذا المقطع في حدّ ذاته سيفسّر لنا – لاحقا – سبب عدم وجود صراع حقيقي بين البطل والآخر الغربي كـــ " فرانسواز " على وجه الخصوص.

لقد كان الاستعمار الفرنسي – عكس الاستعمار الإنكليزي – ذكيّا في معاملته للشعوب الواقعة تحت سيطرته، فهو لا يكتفي بالاستغلال المادي لخيراتها وثرواتها، بل يطمح إلى الاستغلال الفكري لأبنائها بجعلهم تابعين له ثقافيا وحضاريا، وهذا ما يضمن له البقاء طويلا في هذه البلدان. ولهذا حرص على تعليم أبناء هذه الشعوب، لا رغبة في المعرفة ومحو الجهل من هؤلاء – كما يدّعي – ولكن حتّى يعرف هؤلاء كيف يقولون له " **نعـــم** " [**OUI**] بلغته.

ومن هنا نفهم سبب سلبية البشير منذ بداية الرّواية تجاه الحضارة الغربية الممثّلة في الاستعمار الفرنسي، فقد تعلّم منذ صغره احترام [الآخر]

الغربي مجسّدا في معلّمه الفرنسي. بل إنّ تأثير هذا المعلّم كان أكثر خطرا من أيّ تأثير آخر، فقد حضّره – منذ طفولته – كي يذوب في هذه الحضارة الاستعمارية ويتّبعُها عند أوّل فرصة تتاح له. وقد جاءت هذه الفرصة حينما أخذه الجنود الأجانب إلى الثكنة العسكرية ليتدرّب جاعلين منه أحد أتباعهم، وسوف يبرهنُ لهم ولنا عن مدى تأثير معلّمه الفرنسي على سلوكه مع الأجانب.

وبمجرّد أن وعدوه (الأجانب) بأن يدخلوه مدرسة جميلة وأنّهم سيصنعون منه « إنسانا آخر، إنسانا شجاعا، إنسانا ذا قوّة وسطوة وجبروت ونفوذ... »[14]، حتّى ندم على محاولته الهرب منهم. و هو ما يعني أنّ تأثير معلّمه الفرنسي في الطّفولة قد بدأ يظهر على سلوكه في الكبر.

وجاء التأثير مضاعفا بما شاهده في الجزائر العاصمة من بنايات ضخمة تأوي الفرنسيين، وكثرة الجنود والسيارات العسكرية الموجودة هناك. كان ذلك بالنسبة له أكبر دليل على قوّة فرنسا وعظمتها، وهذا ما أفضى به إلى أن ينبهر أمام هذه القوّة والعظمة، ويغدو مستعدّا ليقوم بأيّة أوامر تصدر إليه، ويطمح في أن يصبح قويّا مثل الفرنسيين. ومن منطلق إحساسه بالضعف تجاههم وبحثه عن القوّة، ثابر على العمل وتنفيذ الأوامر بدقّة وسرعة إلى درجة كبيرة جعلته يحصل على ثقة مسؤوليه، فأصبح عونا لهم « لا يستطيعون التخلّي عنه »[15]. وهكذا فقد احتُفظ به هو في فرنسا حتّى يكون واسطة بين الضباط الفرنسيين وبين زملاء آخرين جدد قد يقدمون إلى فرنسا في مهمّة البشير نفسها.

وقد نتج عن نكرانه لذاته الأصلية أنّه كان يتجاهل زملاءه الجزائريين الّذين استقدمتهم فرنسا للمهمّة عينها الّتي استقدمت إليها البشير، بل إنّه كان ينظر إليهم بعيون « شاخصة متحدّية وكأنّ لسان حاله يقول:

« لعنة الله عليكم أيّها الكلاب. لا يستطيع الإنسان أن يتخلّص منكم »[16]. ولهذا تعمّد تجاهل كلّ ما يجري في الجزائر، بل وأنكر زوجته وابنه الّذي وُلد وأنكر أخاه العباسي.

أصبح يكره كلّ جزائري في فرنسا يذكّره بعائلته ووطنه وتقاليده الّتي تركها، فهو يريد أن يكون مثل الفرنسيين في كلّ شيء، وينكر جزائريّته بشدّة: « أنـــا لست جزائريّا والجزائرُ لا تهمّني، لقد أصبحتُ مثلكم فرنسيّا. لا علاقة لي بما هو في خارج فرنسا »[17].

لا يمكن لشخصية " البشير " الضعيفة وغير الواعية أن تكون كفؤا في صراعها مع الآخر الفرنسي المسلّح بالقوة العسكرية والحضارية والثقافية ، ولهذا سرعان ما ينتهي هذا الصّراع بانتصار الآخر الفرنسي على الأنا الجزائري ليغدو البشير فرنسيا أو بمعنى أدقّ « متفرنسا ». وحتّى يقطع آخر شيء كان يربطه بماضيه وهو اسمه العربي الجزائري، لم يجد سوى أن يغيّره ويتسمّى باسم "جاك". « وبهذا الاسم الأجنبي الجديد أصبحَ في إمكانه أن يلج الأوســاط الفرنسية، وأن يتّصلَ بفتيات باريــس دونما عقدة نفسيـــة »[18].

هذه المبالغة في إنكار أصله وإثبات جنسيته الفرنسية أي جنسية الآخر الغربي، هي الّتي دفعته ذات يوم وهو مع حبيبته الفرنسية فرانسواز، أن يذكر لها أنّه فقد والديه في هجوم قام به الثوار الجزائريون: « فأنا قد فقدت أفراد عائلتي جميعا في الجزائر إثر هجوم خاطف قام به الثوار على المنطقة الّتي نسكن فيها »[19].

من خلال ما أفضت به الشخصيّة يمكننا استخلاص ملاحظة على جانب كبير من الأهمية:

فهو، بدافعٍ من مبالغته في إخفاء أيّ أثر لماضيه، لا يملك سوى أن يقلبَ الحقائق التاريخية الخاصّة بموت والديه وأهله. فهو لا يتوانى عن الإعلان أمام فتاته الفرنسية أنّ الثوار هم سبب موت والديه مع أنّ السّبب الحقيقي لموتهم كان الجيش الفرنسي الّذي انتقم من أهله بسبب مساعدتهم للثوّار الجزائريين. فهو (البشير) بالإعلان عن هلاكهم بهذه الطريقة المعكوسة إنّما يعلن في الوقت نفسه عن موت جزائريته وأصالته، ويعلن عن موت شخصيته الأصلية وميلاد شخصية أخرى مخالفة تماما لما كانت عليه في الجزائر؛ شخصية تحاول فعل أيّ شيء لتصبح فرنسية، وسيكون أصلها وأهلها، التقاليد الفرنسية وعاداتها ممثّلة في شخصية فرانسواز الّتي يعبّر لها عن فرحته بوجودها معهُ قائلا: « الحمد لله أنّي أملكُك أنت، فأنت عوضهم جميعا... »[20].

ومن هنا نرى أنّ الصّراع لم يكن متكافئا منذ البداية بين الشخصيتين الفرنسية والجزائرية؛ ممّا نتج عنه انهزام سريع للشخصية الجزائرية (البشير) أمام شخصية الآخر الفرنسي ممثّلة في (فرانسواز).

إنّ هذه الملاحظات تضعنا أمام سؤال حضاري جوهري: كيف ترى الأنا/الرجل (البشير) صورة الآخر/ الأنثى (فرانسواز) في العشرية ذاتها تقريبا[21] لأنثى مصطفى سعيد في رواية الطيب صالح " موسم الهجرة إلى الشمال "[22].

تخبرنا الرواية بأنّ البشير لم يرد زوجته ربيعة هذه الأنثى المستسلمة الراضخة الّتي تفكّره بضعفه، إنّما كان يبحث عن أنثى أخرى تملك الكثير من صفات الرجال. أنثى قوية، تتحكّم في مصيرها، تمشي وتشقّ طريقها بثبات غير عابئة بأحد. هذه الأنثى وجدها في شخص " فرانسواز " الفرنسية الأرملة.

التقاها في أحد الليالي الممطرة بباريس تمشي تحت غزارة الأمطار وظلمة الليل غير عابئة بذلك ممّا ولّدت فيه إعجابا بها جعله يحدّث نفسه قائلا: « يا للمــرأة الشجاعة الّتي تخترق الشــوارع بمفردها دون حــارس أو حام... إنّها تمشي مرفوعة الرأس، متصلّبة القامة، معتزّة بنفسها، تتحدّى الزمن، وتدعو إلى الإعجاب.. هذه هي المرأة الّتي يمكن للمرء أن يفتخر بها ويعتزّ بقربها... إنّها نعم المرأة في جميع النواحي: في الشجاعة ومقارعة الصعاب، وفي الجمال... هذه المرأة الّتي كنت أبحث عنها منذ زمن بعيد، هذه هي المرأة الّتي يلزم عليّ أن أتقرّب منها وأنال رضاها. هذه هي الأنثى الّتي تجدر بي... »[23].

يبيّــن لنا هذا المقطع من الرواية ويوضح لنا سبب انجذابه إلى الآخر/ فرانسواز وتنكّره لزوجته وأهله. فالّذي جذبه في هذه الأنثى الغربية ليست أنوثتها ولكن الجانب الذكوري فيها الّذي يفتقر إليه وتفتقر إليه كذلك زوجته ربيعة، وهذا الجانب يتمثّل في الشجاعة، التحدّي، الذكاء، الجرأة، بل وحتّى القوّة الجسدية. هذه القوّة الّتــي ساعدت فرانســواز على حملــه – مع وزنه الثقيل – إلى منزلها بعد أن سقط في الشارع فاقدا وعيه تحت غزارة المطر. ولعلّ هذا يرمز بذكاء إلى العلاقة النفسية الغريبة التي تربط المستعمَر بالمستعمِر والّتي تجعل الأول مبهورا دائما بمن استعمره أي بمن يمثّل القوة والقهر والاستعمار يُلصق به كلّ الصفات الإيجابية بينما يسقط على نفسه هو كلّ أشكال الضعف والسلبية والمهانة. فلا تزال صورة الآخر الفرنسي عند الكثير من الشعوب المستعمَرة – ومنها الجزائر طبعا– صورة غريبة مركّبة من صفات القوة والحضارة والأناقة في اللباس والمأكل والمشرب. وهي صورة من شأنها الإبقاء على جو التبجيل والخضوع الذي يُكنُّه المستعمَر للمستعمِر حتّى وإن استقلّ عنه وتحرّر منه.

تعتبر هذه الرواية من الروايات الحضارية الّتي جاءت لتقلب المعادلة النفسية (ساديـــة/مازوشيـــة) الّتي تربط معظم أبطال الروايات الحضارية الأخرى بالنساء الغربيات. فكانت السادية من نصيب المرأة الغربية (فرانســـواز) بدلا من أن تكون نابعـــة من ذات البشير (الشرقـــي) مثل بطل " موسم الهجرة إلى الشمال " مصطفى سعيد. ولعلّ هذا راجع إلى أنّ البشير لم يكن بطلا مثقّفا – كغيره من أبطال الروايات الحضارية – يحمل ذاكرة جماعية عن الغرب الاستعماري وعنفه واستغلاله لشعبه. ولهذا لم يكن في علاقته بالمرأة الغربية فاعلا مؤلما لها (ساديا) وإنّما كان مفعولا به مبهورا بها تحت رحمتها وتحت رحمة تجاربها القاسية والفظيعة.

فالعلاقة الّتي كانت تربطه بفرانسواز ليست علاقة حبّ، حيث شعر – مع مرور الوقت – بأنّ فرانسواز لم تكن تحبّه لذاته، وإنّما حبّها له هو حبّ العالِم لموضوعه: «فهي لا تميل إليه كما تميل المرأة إلى الرجل... وإنّما تميل إليه كما يميل العالم على مادته وكما يميل الدَّارس على موضوعه... فهي تعاشره لتستطلع منه أسراره... وهي ترافقه لتستلهم من كلامه مادتها... وهي ترضى بتصرفاته لتكشف سلوكه، فالبشير– كما يشعر– هو بالنسبة لها موضوع للدراسة والاكتشاف والتجربة، ولا شيء آخر... »[24].

كان بالنسبة للآخر حقل تجارب فقط، فحبّها له يختلف عن حبّ المرأة للرجل، وإنّما هذا الحبّ كان حبّا تسلّطيا، حبّا فيه عذاب التجارب الّتي تمارسها عليه؛ ومن أجل ذلك كانت باقية معه معاشرة له. إنّ هذه الرواية – سابقاتهـــا– تحمل رموزا عديدة عن الصّراع الحضاري بين الشرق والغرب، ولعلّ أهمّ رمز فيها هو أنّ الغرب الاستعماري لا يحبّ الشرق لذاته وحضارته وموروثه التاريخي والثقافي، إنّما حبّه له هو حبّ مستعمِر لمستعمَر، حبّ عالِـــم لفئران مخبره يمارس تجاربه عليها بقسوة مستلذاً

عذاباتها وآلامها جراء هذه التجارب. هذا هو الوجه الحقيقي للغرب. ولهذا قرّر البشير « العودة بعد أن عرف الغرب في شخص " فرانسواز" الّتي كانت تعرف منذ البداية حقيقته، ولكنّها كانت تستلذّ تعذيبه والقسوة عليه، وتشجعه على نكران ذاته وأصله، وتتجوّل معه في الأحياء الفقيرة الّتي يسكنها المهاجرون لتدري أثر ذلك على مشاعره »[25].

فلقد كانت تمارس ساديتها عليه دون شفقة أو رحمة. عرفت بأنّه جزائري بالرّغم من تغييره لاسمه العربي باسم " جـــاك " وارتدائه لباس الجنود الفرنسيين، كما عرفت كلّ شيء عن وطنه وأصله. وربّما هذا يرمز إلى أنّ الآخر الغربي يعرف عنا كلّ شيء مهما حاولنا إخفاء ذلك خصوصا نقاط ضعفنا وإحساسنا بالنقص تجاهه ولكنه بالمقابل يتغابى أمامنا ويتظاهر بالجهل حتى يتمكّن منّا أكثر ويستلذّ عذابتنـــا ويقتات من آلامنا من دون أن ندري بذلك. فلو علم البشير بأنّ فرانسواز تعرف كل شيء عن أصله من البداية لما تركها تدفع به ليتجول معها في الأحياء الفقيرة التي يسكنها المهاجرون الجزائريون مثله مع ما يحسه من آلام نفسية رهيبة جراء ما كان يراه من بؤسهم ومهانتهم وفقرهم. ولكن قضت ضرورات الرواية ومن قبلها ضرورات العلاقة الغريبة بين المستعمِر والمستعمَر أن لا يدري البشير بأنها تدري منذ البداية بحقيقته.

سادية الآخر الغربي الأصلية فيه جعلت فرانسوا تزيد من آلامه بدفعه إلى نكران أصله الجزائري وذاته العربية مع معرفتها المسبقة لما في هذا النكران من آلام فظيعة وعذاب رهيب على نفسيته. ساديتها وتلذّذها بإيقاع العذاب والآلام عليه تتجلّى مرّة أخرى في موقف مرضه بالسّلّ. كانت تعرف أنّه سيدخل المستشفى لأنّه مريض بالسّلّ – ولم يكن يدري – لأنّها عرفت أعراض هذا المرض على صحّته فقد كانت تعمل ممرضة من قبل؛ لكنّها لم

تنبّهه إلى خطورته ولم تدفعه إلى الذهاب إلى المستشفى وتناول الأدوية حتّى تتحسّن صحّته، نراها تعترف له بذلك – فيما بعد – بقولـــها: « ...كنت أقوم بتجربة معك... كنت أريد أن أجرّب كيف يعمى العاشق، ويتيه في حبّ عشيقته، وهو لا يعرف أنّ هذه الأخيرة، تستلذّ عذابه، وتعيش على آلامه... إذا كان هو يذبل ويضمحل، فهي تنتعش وتقوى. ومن هذا التناقض يعيش حبّها ويزدهر غرامها... هكذا يا جاك... هذا هو حبّي... »[26].

إنّ هذا الحبّ الّذي يدفع بالمحبّ إلى إيقاع الآلام على محبوبه، ويستلذّ عذابه لهو حبّ مرضي : إنّه السادية بعينها تعترف بها فرانسواز للبشير في لحظة من لحظات تأنيب ضميرها وتوبتها عن ذلك. ولعلّ الرواية قد نجحت إلى حدّ بعيد – بإبرازها لهذه العلاقة المرضية بين البطل وفرانسواز – في الترميز إلى العلاقة غير سوية الموجودة بين الشرق المستعمَر والغرب المستعمِر (الجزائر / فرنسا) والتي تجعل هذا الأخيـــر لا يتخلّى عن مستعمَره حتّى بعدما ينال استقلاله. فهو لا يحبّه حبّ النّدّ للنّدّ وإنّما يحبّه حبّا من نوع آخر، إنّه حبّ القويّ للضعيف، حبّ المستغِلّ للمستغَلّ. فعلاقتهما العشقية هي علاقة لا تقوم على ذوبان بعضهما في بعض ولا تقوم على التكامل بينهما وإنّما تقوم على التناقض والتضاد في صيرورتهما المشتركة: فلابدّ لأحدهما في هذه العلاقة الغريبة أن يكون منتصرا والآخر منهزما. ليس هناك تعادل، ليس هناك سلام وليس هناك تكامل، بل يعيش أحدهما ويتقوّى وينتعش على حساب موت الآخر الذي يضعف ويذبل.

فهذه العلاقة العشقية الغريبة بينهما تفرض بطريقة أو بأخرى وجود معادلة لا مناص لكلا الطرفين من الخضوع لقانونها الذي يقوم على أساس كفتين متقابلتين تتأرجحان ولا تتساويان أبدا: إذا علَت إحداهما، فذلك يفرض

بالضرورة أن تنزل الكفة الأخرى. فلا توجد قوة في كفة إلاّ إذا قابلها ضعف في الكفة الأخرى، ولا انتعاش في جانب إلاّ جابهه اضمحلال في الجانب الآخر ولا غالب في إحداها إلاّ ووُجد مغلوب في الأخرى. هذه هي المعادلة الرّهيبة التي حكمت العلاقة بين الشرق والغرب ولا تزال، فلا يقوم الغرب إلا على أنقاض الشرق ولا يزدهر هذا الغرب ويتطور إلاّ إذا صاحب ذلك ركود وتخلف في الشرق. وإذا أراد الشرق أن يتحرّر يوما وينتصر فلابدّ أن ينجرّ عنه انهزام للغرب. هذه الرسالة الرمزية التي كانت تحاول الرواية أن ترسلها إلينا من وراء شخصياتها الرمزية.

كانت فرانسواز تحبّه ولكنّ حبّها له من نوع خاص، إنّه حب مرضي. ولم تكن هذه التجربة الوحيدة، وإنّما تعدّتها إلى تجارب أخرى أكثر خطرا وأوقع أثرا على نفسية البطل وشخصيته. لقد كانت تشجعه على نكران أصله العربي وتصرّ على أن يصاحبها في تجوّلاتها بباريس داخل أحياء المغاربة المهاجرين الّذين يعيشون في ظروف صعبة، وذلك حتّى تعرف مشاعره وترى تطاحنها واحتراقها بين ما يحسّه من مشاعر المواساة والشفقة والرّحمة بهم لأنّهم إخوانه، دمهم يجري في دمه، وبين ما يُظهره سطحيا من أنّه فرنسي يحتقرهم ويسخر منهم حتّى لا ينكشف أمره لها. وكان ذلك أقصى درجات العذاب وأقصى ما يتحمّله بشر، بل هو فوق طاقته كما تعترف هي بذلك من بعد: «وهل تتذكّر تلك التنزهات الّتي كنّا نقوم بها، في مختلف أنحاء باريس، وخاصة تلك التنزّهات في الأحياء الفقيرة، حيث يعيش المهاجرون؟ هل عرفت الآن لماذا كنت أصرّ، وأطلب منك أن تصاحبني، فنذهب ونتجوّل في تلك الأحياء؟ إنّني كنت أحاول معرفة شعورك، وتصرّفاتك، حينما ترى إخوانك المساكين يعملون ويكدّون... في ظروف صعبة تبعث على الرّحمة والشفقة. وأُعلمك الآن أنّ تصرفاتك في تلك

اللحظات، كانت وفق ما كنت أعتقد وأتوقّع... و في الحقيقة، إنّه لم يكن في استطاعتك أن تفعل أكثر من ذلك بل، إنّه ليس من طاقة البشر... إنّ ذلك الموقف كان فوق احتمالات الإنسان »[27].

هكذا تظهر شخصية الآخر " فرنسواز " على حقيقتها الفظيعة، فهي لم تكن يوما تحبّ البشير حبّا خالصا له، وإنّما حبّها له كان حبّا مرضيا، حبّا ممزوجا بالرّغبة في تعذيبه وإيلامه فاقت كلّ تصوّر.

فساديتها هذه، مارستها عليه بكلّ وحشية وتلذّذ: فإذا كانت تجربتها على صحّته من خلال تركه غافلا عن تدهور حالته الصحية وظهور آلامه الجسدية وكثرتها مع معرفتها المسبقة بذلك(فقد كانت ممرّضة وتعرف الأعراض المرضية)، فإنّ تجربتها الثانية على نفسيته وشخصيته، كانت في منتهى الفظاعة والقسوة والوحشية، لأنّ الآلام النفسية أقوى بكثير من الآلام الجسدية. فالجروح الجسدية تندمل بسرعة إذا ما وُجد هناك من يداويها فتختفي الآلام، بينما الجروح النفسية تطول فترة شفائها وربّما تنعدم لتبقى تلك الآلام النفسية تمارس تعذيبها على شخصية البطل وتقضّ مضجعه، فلا يعرف طعم الراحة والهناء حتّى بعد انتهاء هذه التجارب الأليمة، وتبقى تأثيراتها عليه لفترة طويلة من الزمن.

لقد «عرض الكاتب صورة حبيبة غربية الأطوار، فهي تارة طيّبة وتارة قاسية، وتارة أخرة جبارة، إلاّ أنّ السمات العامة الّتي يمكن استخلاصها... أنّ فرانسواز، امرأة ناضجة جميلة، رشيقة، أحبّت البشير بغية الالتذاذ بتعذيبه والقسوة عليه »[28]. هذه هي صورة الآخر الفرنسي في الرواية.

وهي بذلك ترمز للغرب المادي الذي لا يريد أن يتركنا لحالنا مهما تحرّرنا منه، كما لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من الانجذاب نحوه والانبهار

بمستواه الحضاري العالي. يظهر لنا أحيانا طيّبا وأحيانا أخرى جبّارا وقاسيا فيسلب منّا كلّ ما نملك من خيرات ويتعدّى إلى شخصيتنا ليسلبها مقوّماتها الوطنية والتاريخية والتراثية. يمارس ذلك علينا بنوع من التلذّذ بما يسبّبه لنا من آلام نفسية وتاريخية على ذواتنا وأوطاننا.

هذه الرواية هي رواية الغرب الّذي يمارس ساديته على الشرق؛ فهي رواية الإيلام والتلذّذ بذلك: هذا هو وجه الغرب الاستعماري وهو الوجه الحقيقي له حتّى وإن بدت لنا وجوه أخرى له طيّبة أو متسامحة تحت شعار الحضارة والتثقيف. وهذا ما أدركه البشير في شخصية فرانسواز الرمز (الغرب) حينما علم بأنّها كانت تعرف كلّ شيء عنه، فرفض عرضها بالزواج رفضا قاطعا: «أنا لم أكتشف إلى حدّ الآن فرانسواز، فرانسواز الحقيقية. كنت أعرف امرأة أخرى. والآن لقد فهمت كلّ شيء »[29].

« وهذا الفهم الحقيقي لشخصية فرانسواز، أي لطبيعة الحضارة الفرنسية، هو الّذي جعل البشير يرفض رفضا تاما، وبسرعة، عرض هذه الأخيرة الزواج به، ويرجوها أن تعدّ له الأوراق الضرورية للسفر. وليس معنى إعداد الأوراق هاهنا سوى اعتراف فرنسا بالشخصية الجزائرية... فانفصال البشير عن فرانسواز مرادف تماما لانفصال الجزائر نهائيا عن فرنسا »[30].

قد يغرّر الغرب ببعض أبناء الشرق ويُبهرهم بمنجزاته المادية وتفوّقه الحضاري والعسكري، ولكن ما يمارسه عليهم من ألوان التعذيب النفسي والتشويه لمقوّماتهم، يدفعهم في الأخير– بعد ظهور وعيهم بذلك واكتماله – إلى نبذه والعودة إلى أصالتهم وبيئتهم. فالّذي يقبل سادية الغرب إنّما هو يعاني من مازوشية في شخصيته ونفسيته تدفعه إلى البحث عن إيقاع الألم على نفسه والتلذّذ به، وهذا ما لم يكن عليه البشير.

فالبشير لم يكن مازوشيا يتلذّذ بالعذاب والألم المسلّط عليه، وإنّما كان ذاهلا عن ذاته، مغتربا عن مجتمعه وشخصيته، غير مدرك لطبيعة هذه الآلام المسلَّطة عليه من طرف فرانسواز/ الغرب، نظرا لضعف شخصيته وانعدام الوعي لديه، بل لم يكن بطلا مثقفا كما هو عليه سائر أبطال هذا النوع من الروايات الحضارية.

ملاحظـــة ختاميـــة

وقبل أن ننهي هذه الدراسة تستوقفنا ملاحظة على جانب كبير من الأهمية والتي تمسّ لجوء الكاتب المتعمّد إلى اختيار أسماء شخصيات الرواية بعناية فائقة. فأسماء أبطال الرواية لم توجد اعتباطا وإنّما جاءت لتخدم المسار الرمزي الّذي تسير عليه الرواية منذ بدايتها حتّى نهايتها. فاسم " البشير" واسم ابنه " باديس " جاءا هنا ليُحيلا بطريقة رمزية سافرة إلى علَمين بارزين من أعلام الجزائر ومن قادة التثبُّت بالهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري اللّذين وقفا في وجه أساليب الاستعمار التغريبية في الجزائر ومحاولاته المستميتة لطمس الشخصية الجزائرية العربية والإسلامية. يرمز اسم " البشير" و ابنه " باديس " إلى كلّ من العلاّمة الجزائري عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين وصديقه ونائبه في رئاسة الجمعية البشير الإبراهيمي، اللّذين أسّسا الجمعية ووقفا ضدّ دعاة إدماج الجزائر في فرنسا ونادا بهوية الجزائر العربية الإسلامية. وعبد الحميد بن باديس هو صاحب البيت الشعري المشهور:

شعب الجـــزائر مسلم وإلى العـــروبـــة ينتسب.

كما لا تخفـــى علينا الدّلالة الرمزية الّتي تربط بين كلمتي " فرنسا " و" فرانسواز " أو بمعنى أصحّ بـــين المصـــطلحين الفرنســـيين " فـــرانس "

[France] و" فرانسواز " [**Françoise**]. ففرانسواز من هذا الجانـــب هـــي تصغير لكلمة " فرانس " أو" فرنسا "، أي بمعنى آخر تمثّل فرانسواز جانبـــا من فرنسا الاستعمارية والبيئة الغربية الّتي هجرها البشير. فـــالآخر الغربـــي الفرنسي ما هو إلاّ صورة مصغّرة عن الغرب/ فرنسا بما يحمله من عـــداء وإيلام وتعذيب نفسي رهيب واستغلال فظيع للبيئة الجزائرية وأفرادها. كمـــا أنّ رفض البشير عرض فرونسواز الزواج به في آخر المطاف مـــا هـــو إلاّ رمز لرفض الجزائر أبوية فرنسا/ الغرب وتبعيتها لها من جديـــد تحـــت أي شكل آخر من أشكال التبعية والاستعمار سواء تحت اسم الشراكة أو التقارب أو علاقة الشمال– جنوب أو أي علاقة أخرى ظاهرها المســـاعدة والمنفعـــة وباطنها الاستغلال والابتزاز والسيطرة.

المراجع والهوامش:

1 – رنا قباني– أساطير أوروبا عن الشرق: لَفّقْ تَسُدْ– ترجمة: د. صباح قباني– دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر– دمشق– الطبعة الأولى– سنة 1988 – ص 19.

2 – المرجع نفسه – ص 19 .

3 – اللاشعور الجمعي هو، بالمعنى الّذي حدّده " يونغ ": ما في لاشعور الفرد، ربما يكون من أصل سلفي أي يرجع للأسلاف. وهو مجموع الصفات غير الشعورية الّتي لم يكتسبها الفرد بل هي موروثة. و هي غرائز بما هي حوافز على القيام بأفعال تقتضيها ضرورة ما، دون أن تتدخّل الواعية (الشعور) في استشارتها. فالغرائز، والنماذج البدئية « **Archétypes** » مجتمعة، تشكّلُ اللاشعور الجمعي والّذي لا يتكوّن من محتويات فردية خاصّة فقط، بل ومن محتويات جماعة أو أمّة أو جنس بشري معيّن ويتكوّن كذلك من محتويات عالمية ذات حدوث نظامي. يمكن مراجعة:

– كمال الدسوقي – ذخيرة علوم النفس – الدار الدولية للنشر والتوزيع – القاهرة، الجزء الأوّل، ص 695.

و– كارل غوستاف يونغ – علم النفس التحليلي– ترجمة وتقديم: نهاد خياطة – دار الحوار– دمشق– الطبعة الأولى1985– ص293.

4 – مصطفى حجازي – سيكولوجية الإنسان المقهور – منشورات معهد الإنماء العربي – بيروت – ط1 – 1986 – ص .179

5 – خير الله عصّار– مقدّمة لعلم النفس الأدبي– ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – د.ط – 1982 – ص 105 – .106

6 – يراجع: المرجـــع نفســـه – ص .107

7 – يراجع: جان لابلانش و ج.ب. بونتاليس– معجم مصطلحات التحليل النفسي – ترجمة: مصطفى حجازي – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – الطبعة الأولى – 1985.– ص 438.

8 – ينظر: عبد الكريم غلاب– الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات – الدار العربية للكتاب (ليبيا– تونس) – (د.ط) – سنة 1977 – ص 52.

9 – عرعار محمد العالي – ما لا تذروه الرياح– الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر– 1972 – ص 25.

10 – المصدر نفسه – ص 15.

11 – المصدر نفسه – ص 28.

12 – المصدر نفسه – ص 30.

13 – المصدر نفسه – ص 30.

14 – المصدر نفسه – ص 33.

15 – المصدر نفسه – ص 66.

16 – المصدر نفسه – ص .70

17 – المصدر نفسه – ص 80

18 – محمد مصايف – الروايــة العربية الجزائريــة الحديثة بين الواقعية والالتــزام – الدار العربية للكتاب (طرابلس)– والشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر) ط1 – 1983 – ص 292.

19 – عرعار محمد العالي– ما لا تذروه الرياح – ص 132.

20 – المصدر نفسه – ص 133.

21 – امتدت الفترة لست سنوات تقريبا بين صدور رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح سنة 1966 في مجلة الحوار وصدور رواية ما لا تذروه الرياح لعرعار محمد العالي سنة .1972

22 – يراجع: نهال مهيدات – الآخــر في الروايــة النسويــة العربيــة: في خطاب المرأة والجسد والثقافة – دار عالم الكتب الحديث – إربد – الأردن – ط1 – 2008 – ص .107

23 – عرعار محمد العالي– ما لا تذروه الرياح – ص 99.

24 – المصدر نفسه – ص139 – .140

25 – الطاهر روابنية – اتجاهات الرواية العربية في بلدان المغرب العربي: " تونس – الجزائر – المغرب " 1944 – 1975 – رسالة ماجستير في الأدب العربي المعاصر – إشراف د. معروف خزنه دار – معهد اللغة والأدب العربي – جامعة الجزائر – 1986/1985– مخطوط – ص 241.

26 – عرعار محمد العالي – ما لا تذروه الرياح – ص 202.

27 – المصدر نفســه – ص 206.

28 – عبد المجيد حنون – صورة الفرنسي في الرواية المغربية – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – د.ط – 1986 – ص 197 – 198.

29 – عرعار محمد العالي – ما لا تذروه الرياح – ص 193.

30 – محمد مصايف – الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام – ص 297.